

المطلب الأول: جبال مكة المكرمة

وَرَدَتْ لَفْظَةً «جبل، جبال» في القرآن الكريم تسعةً وثلاثين مرةً جاء بعضها في سياق ذكر امتنان الله على خلقه بِنِعْمِهِ، ومنها الجبال، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾⁽¹⁾، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٢﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾⁽²⁾، قال القرطبي: (أي: لتسكن الأرض ولا تتكفأ بأهلها)⁽³⁾، في حين ظهر لي أن معظم الآيات التي ذكرت الجبال بلفظ «رَواسي» جاءت في سياق ذكر فائدة الجبال للأرض والناس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنين يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾، قال القرطبي: (رواسي، أي: جبالاً ثوابت، واحدها: راسية؛ لأنَّ الأرض ترسو بها؛ أي: تثبت)⁽⁵⁾، وَصَرَّحَ في موضع آخر بفائدة تلك الرواسي فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾⁽⁶⁾، وقد تكررت لفظة رواسي تسع مرات.

إذن فالجبال المادية هي أوتاد الأرض، ولكي تتحقق الموازنة والثبات للأرض خلق الله فيها الجبال.

وكما أن الله تعالى خلق جبالاً مادية فقد خلق جبالاً معنوية، ويُطلق عليهم في الفكر الصوفي «الأوتاد»، وهم: (الذين يحفظ الله بهم العالم، وهم أربعة لا خامس لهم)⁽⁷⁾، قال بعضهم: (الأوتاد على الحقيقة سادات الأولياء، وخواصُّ الأصفياء، فإنهم جبال ثابتة، وبهم تثبت أرض الوجود)⁽⁸⁾، وقال البوصيري رحمه الله

(1) سورة النحل، آية: 81.

(2) سورة النبأ، الآيتان: 6 و7.

(3) القرطبي، تفسير: 112/19.

(4) سورة الزعد، آية: 3.

(5) القرطبي، المصدر السابق: 184/9.

(6) سورة الأنبياء، آية: 31.

(7) الشرقاوي، الدكتور حسن، معجم ألفاظ الصوفية، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م: 62.

(8) البروسوي، روح البيان: جلد 10/294.

هُمُ الْجِبَالُ فَسَلَّ عَنْهُمْ مُّصَادِمَهُمْ ماذا رأى منهم في كُلِّ مُصْطَدَمٍ⁽¹⁾
 وقد بيّن ابنُ عطاء الله السكندري (ت: 709هـ) حقيقةَهم بقوله: (الأوتاد أهل
 الاستقامة والصدق، لا تغيّرهم الأحوال، وهم في مقام التمكين)⁽²⁾، وقد كان الإمام
 الشافعي رحمه الله من الأوتاد، قال ابن الجوزي عن بلال الخواص أنّه قال: (كنت في
 تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشيني فعجبت منه، ثم ألهمت أنّه الخضر، فقلت له: بحق
 الحق من أنت؟ قال: أخوك الخضر، قلت: أريد أن أسألك مسألة، قال: سلّ، قلت: ما
 تقول في الشافعي؟ قال: من الأوتاد، قلت: فأحمد بن حنبل؟ قال: صدّيق)⁽³⁾.
 قلت: والجبل المعنوي الشامخ الذي تصاغرَت أمامه جبالُ مكّة الجُدَد
 البيض، والحُمْر المختلفة الألوان، والغرايب السود، وما سواها من الجبال المعنوية، هو
 السيدة الطاهرة أمّ المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، وجزى الله القائل في هذا
 المعنى خيراً، إذ يقول من أبيات له:

وبالكبرى خديجة ذات طُهرٍ ومن شعب الحجون أتى شذاها
 هي الجبل الأشمّ بذي المغاني هي الغيث المغيث لمن أتاها
 وهناك جبالٌ من الرّجال، يحيطون بمكة، ويتوزعون بين أكنافها، منهم الظاهر
 ظهور الشمس في رابعة النهار، ومنهم التقيّ الخفيّ صاحب الأسرار، ونعني بهم الذين
 مازالوا في هذه الدار أبقاهم الله ليحفظ بهم الأرضَ ومنّ عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ
 اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁽⁴⁾، قال
 القرطبي: (واختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد، مَنْ هُمْ؟، فقيل: هم الأبدال
 وهم أربعون رجلاً كلّما مات واحدٌ بدّل الله آخر، فإذا كان عند قرب القيامة ماتوا
 كلّهم)⁽⁵⁾، وعن جابر ◀ أن رسولَ الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لِيُصْلِحَ بِصَلَاحِ الرَّجُلِ
 وَلَدَهُ، وَوَلَدَ وَلَدِهِ، وَأَهْلَ دَوِيرَتِهِ، وَدَوِيرَاتِ حَوْلِهِ، وَلَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَا دَامَ

(1) الأزهرى، شرح البردة: 77.

(2) البروسوي، المصدر السابق: جلد 10/294.

(3) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت: 597هـ) مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تصحيح: محمد أمين الخانجي، مكتبة خانجي وحمدان: 144ص.

(4) سورة البقرة: من الآية: 251.

(5) القرطبي، التفسير: 169/3.

فيهم⁽¹⁾، وقال ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: إِنْ الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة من أهل بيته وجيرانه البلاء⁽²⁾.

وتقع مكة المكرمة من الناحية الجيولوجية ضمن تشكيلات الدرع العربي المكوّن من صخور القاعدة القديمة التي تشكل معظم الجبال التي تحيط بالمدينة، وتشغل الجبال معظم المساحة التي تقوم عليها مدينة مكّة المكرمة⁽³⁾.

ولا يخفى أنّ للجبال أهمية كبيرة، إذ تعمل كمصدّات للرياح، وهي أوتاد للأرض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾ والجبال أوتاداً⁽⁴⁾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّ أَنْ تُتَمَدَّ بِهِمْ...﴾⁽⁵⁾، وتلك الجبال تتنوّع وتتلوّن، قال تعالى: ﴿...وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾⁽⁶⁾.

ومنطقة الحجاز عموماً هي منطقة جبلية، وتحيط بمكّة عدّة جبال يصل عددها إلى خمسة وأربعين جبلاً ما بين صغير وكبير وسنمّر مروراً سريعاً على بعض تلك الجبال الشامخة التي سمت بقممها عبر التاريخ، وحظيت سفوحها وأحجارها بعقب النبوة واحتضنت غيراتها أشرف نبيّ وأطهر مخلوق، فحقّ لها أن تبقى شامخة وأيّ شموخ!، وحقّ لها أن تزهر طرباً حين وطأتها أقدام حضرة النبي محمد ﷺ!، وحقّ لها أن تفخر ونحن الآن وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً نستقبل سفوحها علّ الرياح إذا مرّت بها تحمل لنا تلك النسائم الأحمدية، والنفحات المحمدية وهذا ما نريد أن نقدّمه في هذا البحث المتواضع في جهوده العظيم في معناه وأهم تلك الجبال:

1- جبل النور

ويُسمّى جبل حراء أيضاً، ويقع شمال شرقي المسجد الحرام بأعلى مكة ويبلغ ارتفاعه نحو 634م من سطح البحر والواقف على الجبل يرى مكّة وأبنيتها، كما يرى

(1) ابن أبي شيبة، المصنف: 210/7 رقم 35415.

(2) الطبراني، المعجم الأوسط: 239/4 رقم 4080، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف. مجمع الزوائد: 164/8.

(3) أخذت هذه المعلومة من موقع على الأنترنت: webmaster@makkawi.com.

(4) سورة النبا، الآيتان: 6-7.

(5) سورة الأنبياء، آية: 31.

(6) سورة فاطر، من الآية: 27.

جبل ثور، وقمة جبل النور تشبه سنامَ الجمل، ولا يوجد جبل بمكة ولا في الأرض كلها يشبه جبل النور؛ لأنَّه فريد الشكل⁽¹⁾.

وقد اكتسب هذا الجبل أهميته من الغار الذي فيه وهو غار حراء الذي يقع بدوره على ارتفاع 621م من سطح البحر، ونحو 281م من سفح الجبل، وهو صَعْبُ المرتقى، والصعود إليه يستغرق نحو ساعة⁽²⁾.

والوصول إلى الغار يقتضي المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلاَّ بِمَشَقَّةٍ، وتبلغ مسافة ما بينهما 60سم تقريباً، ويبلغ طول الغار 3م في مُقَدِّمته فتحة طبيعية وعَرْضُهُ متفاوت أقصاه 1,30م، وارتفاعه 2م ويتسع لشخصين يُصَلِّيَانِ أحدهما واقفاً خلف الآخر، وعلى اليمين مَصْطَبَةٌ تتسع لشخص يُصَلِّي جالساً⁽³⁾.

وتبرز فضيلة هذا الجبل من كثرة مجاورة النبي ﷺ فيه، وما خصَّه الله به فيه من الكرامة بالرسالة إليه ونزول الوحي عليه⁽⁴⁾.

وقال: مسلم بن خالد: (حراءُ جبلٌ مباركٌ قد كان يؤتى)⁽⁵⁾، أي: يُزار ويُقصد وقال ابن الضياء المكي (ت: 854هـ): (ويُسَمَّى هذا الجبل بعضهم جَبَلُ النور، ولَعَمْرِي إِنَّه كذلك لكثرة مجاورة النبي ﷺ وتعبُّده فيه، وما خصَّه الله من الكرامة بالرسالة إليه، ونزول الوحي فيه عليه، وذلك في غارٍ في أعلاه مشهور يأثره الخَلْفُ عن السَّلَف -رحمهم الله- ويقصدونه بالزيارة)⁽⁶⁾.

وفي الفكر الصوفي غار حراء هو ديوان الصالحين، قال الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنَّث فيه النبي ﷺ قبل

(1) ينظر: webmaster@makkawi.com

(2) عبد الغني، تاريخ مكة: 123-124.

(3) هيكَل، في منزل الوحي: 234، وعبد الغني، المرجع السابق: 123-124.

(4) الفاسي، شفاء الغرام: 280/1.

(5) الأزرق، أخبار مكة: 288/2.

(6) ابن الضياء، أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد المكي الحنفي، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة

الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم الأزهر، أيمن نصر الأزهر، ط2، منشورات محمد علي

بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، 2044م-1424هـ: ص197.

البعثة⁽¹⁾، قلت: ولعل دليله على ذلك ماروي عن أبي هريرة ◀ أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرك فقال رسول الله ﷺ: ◀ اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد ◀⁽²⁾. وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ◀.

كما يُعدّ هذا الغار معلماً سياحياً مهماً يقصده آلاف المسلمين سنوياً. ولقد اتخذ المسلمون من اليوم الذي أنزلت فيه: ▶ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ◀⁽³⁾، وهي أولى آيات القرآن نزولاً عيداً يحتفلون به في كل عام في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم.

ولقد تشرفت بالصعود إلى هذا الغار السعيد، في ذلك الجبل الفريد عندما كنتُ طالباً في الدراسات الأولية في المعهد الثانوي التابع للجامعة الإسلامية في المدينة النبوية، وذلك في أول حجة لي عام 1973م-1392هـ، وفي سنة 1974م-1393هـ تكررت تلك الزيارة.

2- جَبَلُ ثَوْر:-

يقع في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام على بُعْدٍ نحو 4 كم⁽⁴⁾ وهو عبارة عن ثلاثة جبال مُتَّصِلَة، يقع غار ثور في ثالثها⁽⁵⁾، وفي هذا الجبل 54 تعريجةً، فالصاعدُ تارةً يصعدُ وأخرى ينحدر⁽⁶⁾، وكُلُّما ظنَّ الصاعدُ أنه بَلَغَ القِمَّةَ إذا به ينحدر حتى يصل الغار، والبَحْرُ يُرى من أعلا هذا الجبل، وفيه من كل نبت الحجاز وشجره، وفيه شجرة من حمل منها شيئاً لم تلدغهُ هامة⁽⁷⁾.

وتكمن أهمية هذا الجبل وبركته في غار ثور الذي يقع بدوره على ارتفاع 748م من سطح البحر، ونحو 458م من سفح الجبل، وهذا الغار صخرةٌ مُجَوِّفةٌ أشبه بسفينةٍ

(1) عبد العزيز الدباغ، الإبريز، تأليف: أحمد بن المبارك، مكتبة بسام، الموصل، 1988م: ص 215.

(2) مسلم، الصحيح: 880/4 رقم 2417.

(3) سورة العلق، من الآية: 1.

(4) عبد الغني، تاريخ مكة: 128.

(5) المالكي، في رحاب البيت الحرام: 265.

(6) المرجع نفسه: 265.

(7) الفاسي، شفاء الغرام: 281/2-282.

صغيرة ظهرها إلى أعلى، وأقصى ارتفاعه 1,25م، وأقصى طوله وعرضه 3,5×3,5م وله فتحتان⁽¹⁾، فتحة في ناحية الغرب وهي التي دَخَلَ منها النبي ﷺ وسيدنا أبو بكر، وقد وُسِّعت تلك الفتحة في بداية القرن التاسع الهجري⁽²⁾، وأقصى ارتفاعها متر واحد مع الدرج المنحوت بأسفلها، وفتحة من الشرق، وبين الفتحتين 3,50م، وهذا الغار دون القمة وصعب المَرْتَقَى، ويستغرق الصعود إليه نحو ساعة ونصف⁽³⁾.

ومن فضيلة هذا الجبل أَنَّ النبي ﷺ وسيدنا أبا بكر الصديق ◀ صَعَداه يوم الهجرة. وتبرز أهمية جبل ثور وغاره في النقاط التالية:-

1- إِنَّ هذا الغار علَّم من أعلام التاريخ ومنسَكٌ يحجُّ إليه كثيرٌ من الناس ذكراً لهذه الهجرة التي كانت مبدأً فتح الله لرسوله ﷺ، ونصر الله لدينه، وإعلانه كلمة الهدى والحق⁽⁴⁾.

2- إِنَّ الله جَعَلَهُ مُتَحَصِّناً خيراً الأنام وقلعة رسول الله وحببيه عليه أفضل الصلاة والسلام، وجَعَلَهُ صَدَفاً لأشرف الجواهر، وكهفاً لكهف الأنبياء والمرسلين، وكَنَفاً لكَنَفِ الخلائق من الأولين والآخرين⁽⁵⁾.

3- قال المرجاني: (وذكر بعض الحمّالين أَنَّهُ عَرَفَ رَجُلًا كَانَ لَهُ بَنِينَ وَأَمْوَالٌ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّهُ أَصِيبَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، فَلَمْ يَحْزَنْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِقُوَّةِ صَبْرِهِ، فَسَأَلَتْهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُ رَوَى أَنَّهُ مِنْ دَخَلِ غَارِ ثَوْرٍ الَّذِي آوَى إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ◀ وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ عَنْهُ الْحُزْنُ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا، وَقَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَمَا تَرَى مِنْهُ)⁽⁶⁾.

(1) عبد الغني، المرجع السابق: 128.

(2) ابن الضياء، تاريخ مكة: 205.

(3) عبد الغني، المرجع السابق: 129.

(4) هيكِل، في منزل الوحي: 246.

(5) ابن الضياء، المصدر السابق: 204.

(6) المصدر نفسه: 205.

4- وقد ظهرت لي من قوله تعالى: ▶ ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ▶⁽¹⁾ أربعة فضائل غير ما ذكر: أ- إنه الغار الوحيد الذي ذكر في القرآن الكريم، وبذلك خلد ذكره مادام كتاب الله يُتلى.

ب- إنه مكان تنزل السكينة.

ج- إنه مكان تنزل الملائكة.

د- إنه مكان المعية الإلهية. وكل ذلك حدث في الغار، ولما كانت تلك الأشياء معنوية وليست مادية، فإنها لا تخضع لقانون المادة، أي: لا تتغير بمرور الزمان، فأثرها باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمن قال أن الغار مبارك فقد استند إلى دليل من القرآن الكريم، ومن قال أن الدعاء فيه مستجاب فكلامه صحيح لأن مكان تنزل السكينة يكون موطن إجابة.

والله أعلم

وقد تشرفت بارتقاء هذا الجبل في سنة 1973م-1392هـ، فلما نظرت من أعلى ذلك الجبل الأشم إلى مكة رأيت جميع جبالها متواضعة أمامه، فتبادر إلى ذهني أن النبي ﷺ إنما اختار هذا الغار في أعلى الجبل إشارة إلى العلو والتمكين، وإن أمره سيعلو على ما سواه، وإن ذلك الصعود إشارة إلى مرحلة جديدة مليئة بالشموخ والعز وعلو المكان والمكانة، وذلك ما حدث فيما بعد كما هو مذكور في كتب السير.

خطأ تاريخي حول الموقع الجغرافي

يُصَوِّر بعض المؤرخين ويتابعهم بعض المخرجين التلفزيونيين وأهل السينما أن الغار كان في سفح جبل ثور، وهذا خطأ؛ لأن الغار في قمة الجبل الأخيرة وليس على سفحه، ويدلنا على ذلك قول سيدنا الصديق ◀ لحضرة النبي ﷺ حين اقترب المشركون

(1) سورة التوبة، من الآية: 40.

من الغار: (لو أنَّ أحدهم نَظَرَ تحتَ قدميه لأبصرنا)⁽¹⁾، فلو كان الغار في السفح لقال: لو أنَّ أحدهم نظر إلى الغار؛ لأتته حينئذٍ سيكون أمام وجوههم، بالإضافة إلى مشاهدتي الحيّة وزيارتي الشخصية لذلك الغار، إذ وَجَدْتُهُ في قَمَّةٍ وليس في سَفْحٍ، فالواقف أمام الغار تكون فتحته مقابل رُكْبتيه أو أعلى من ذلك بقليل، ولذلك فإنّه لا يستطيع أن يرى ما بداخله حتى ينحني وينظر تحت رجليه.

3- جَبَلُ أَبِي قُبَيْسٍ:

وهو بضمّ القاف هو الجبل المشرف على الصّفا والمسجد الحرام من جهة الشرق، وارتفاعه نحو 420م من سطح البحر ونحو 120م من سفح الجبل⁽²⁾، وهو أحدُ أخَشَبَي مَكَّة.

وسمّي هذا الجبل «أبو قبيس»؛ لأنَّ أوَّل مَنْ نَهَضَ البناءَ فيه رَجُلٌ يقال له أبو قبيس، فلمّا صعدَ فيه البناءُ سُمِّيَ الجبلُ باسمه⁽³⁾، وكان يُسمّى في الجاهلية الأمين؛ لأنَّ الركنَ الأسود كان فيه مستودعاً عام الطوفان، فلمّا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت نادى إِنَّ الرُّكْنَ مِنِّي في موضع كذا وكذا، فجاء به جبريل فوضعه في موضعه من الكعبة⁽⁴⁾.

وعن مجاهدٍ قال: (أول جبل وَضَعَهُ اللهُ على الأرض حين مادت أبو قبيس)⁽⁵⁾، ووردَ أنّه الجبل الذي صعد عليه سيدنا إبراهيم ليؤذّن بالحج، حين قال الله له: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁽⁶⁾.

4- جَبَلُ قُعَيْقَعَانَ:

هو الجبل الثاني مِنْ أَخَشَبَي مَكَّة، وهو الجبل المشرف على المسجد الحرام من الشمال والشمال الغربي، فلو وقفتَ وَوَجْهُكَ لحجر إسماعيل ► سيكون

(1) تنظر تفاصيل الرواية: البخاري، الصحيح: 1337/3 رقم 3453 مسلم، الصحيح: 1854/4 رقم 2381.

(2) عبد الغني، تاريخ مكة: 130.

(3) الأزرق، أخبار مكة: 267/2.

(4) المصدر نفسه: 266/2.

(5) المصدر نفسه: 277/2.

(6) سورة الحج، آية: 27.

خَلْفَكَ⁽¹⁾، وَيُسَمَّى اليوم بِأَسْمَاءٍ عَدَّةٍ حَسَبَ إِطْلَالِهِ عَلَى مُخْتَلَفِ الْأَحْيَاءِ وَالْجِهَاتِ، فَطَرْفُهُ الشِّمَالِي الْغَرْبِيُّ يُسَمَّى جَبَلَ الْعِبَادِيِّ، وَالشَّرْقِيُّ الْمَشْرِفُ عَلَى الْحِجُونَ وَمَقْبَرَةِ الْمُعَلَّةِ يُسَمَّى جَبَلَ السَّلِيمَانِيَّةِ، وَمَا أَشْرَفَ عَلَى دَحْلِهِ يُسَمَّى جَبَلَ السُّودَانِ، وَبَيْنَ الْقَرَارَةِ وَالْفَلَقِ يُسَمَّى جَبَلَ الْقَرَارَةِ، وَأَمَّا الْجُزْءُ الْجَنُوبِيُّ فَيُسَمَّى جَبَلَ هِنْدِيٍّ؛ لِسُكْنَى الْهِنُودِ بِجَوَارِهِ، وَرَأْتَفَاعُهُ نَحْوَ 410 م مِنْ سَطْحِ الْبَحْرِ وَنَحْوَ 110 م مِنْ سَفْحِ الْجَبَلِ⁽²⁾.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: ﷻ هَذِهِ حَرَمُهَا اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَوَضَعَ هَذِينَ الْأَخْشَبِينَ ﷻ⁽³⁾.

5- جَبَلُ الرَّحْمَةِ:

هُوَ جَبَلٌ صَغِيرٌ شَرْقُ عَرَفَاتٍ بَيْنَ الطَّرِيقِ رَقْمَ (7، 8)، وَحِجَارَتُهُ صَلْدَةٌ كَبِيرَةٌ⁽⁴⁾، وَيُسَمَّى إِلَالًا، وَأَلَالًا بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكُسْرُهَا، وَالنَّابِتُ؛ لِأَنَّهُ كَالنَّبْتَةِ فِي الْأَرْضِ السَّهْلِ، وَالْقُرَيْنِ بَضْمِ الْقَافِ، وَجَبَلِ الدَّعَاءِ، وَجَبَلِ الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ عِبَادَهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَرْتَقُونَهُ فِيهِ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعَائِهِمْ⁽⁵⁾، وَيَقَعُ هَذَا الْجَبَلُ وَسَطَ عَرَفَاتٍ⁽⁶⁾، فَيَجُوزُ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عِنْدَمَا وَقَفَ عِنْدَ الصَّخَرَاتِ قَالَ: ﷻ وَقَفْتُ هُنَا وَعَرَفَاتُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ ﷻ⁽⁷⁾.

وَيَقَعُ هَذَا الْجَبَلُ فَلَكِيًّا عِنْدَ تَقَاطُعِ خُطِّ عَرْضِ 21° 02'، 21° شمالاً وَخُطِّ طُولِ 39° 05'، 69° شرقاً، وَمَسْجِدُ نَمْرَةٍ عَلَى بُعْدِ 1,5 كَمٍ مِنْهُ وَدَرَجَةٍ فِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ بَعْدَ 168° دَرَجَةٍ، وَسَطْحُ الْجَبَلِ مُسْتَوٍ وَاسِعٌ يَدُورُ عَلَيْهِ حَائِطٌ سَانِدٌ رَأْتَفَاعُهُ نَحْوَ 57 م، وَفِي مُنْتَصَفِ السَّاحَةِ دَكَّةٌ مُرْتَفَعَةٌ بِحَوَالِي 40 م، وَعَلَى طَرَفِهَا عَلَمٌ إِرْشَادِيٌّ مَرَبَعٌ بَارْتَفَاعِ 8 م وَعَرْضِ 1,80 م مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَبِأَسْفَلِ هَذَا الْجَبَلِ مَسْجِدٌ

(1) حامد، نذكرى من مكة المكرمة: 93.

(2) عبد الغني، تاريخ مكة: 131.

(3) ابن أبي شيبه، المصنف: 407/7 رقم 36924، والفاكهى، أخبار مكة: 48/4 رقم 2366، والدارقطني، السنن: 4/235 رقم 109.

(4) حامد، المرجع السابق: 69.

(5) المالكي، محمد، في رحاب البيت الحرام: 278.

(6) عبد الغني، المرجع السابق: 119-120.

(7) مسلم، الصحيح: 893/2 رقم 1218.

الصخرات، ومجرى عين زبيدة، ويحيطه في السهل رشاشات الماء بارتفاع نحو 4م في أعلاها أنابيب متحركة لرش الماء وقت الوقوف لتلطيف الجو، ولتخفيف حرارة الشمس عن الواقفين عنده من الحجيج، ويبلغ ارتفاع الجبل من سفحه 65م، وارتفاعه من سطح البحر 372م، وطوله جنوباً 170م، وطوله شمالاً 200م وعرضه غرباً 100م، وعرضه شرقاً 170م، ومحيطه 640م⁽¹⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصعود على هذا الجبل ليس سنة كما يظنه عوام الناس وليس ببدعة كما يُنادي بذلك كثير من الوعاظ هناك ولكنه لما كان من عرفة فيجوز الوقوف عليه، وقد بسطنا هذه المسألة بشيء من التفصيل في الفصل الأول فليراجع هناك.

جبال مكة وعلامات الساعة

علامات الساعة: هي أمور ذكرها النبي ﷺ لأُمَّته تشير إلى قرب قيام الساعة، ومن خلال استقرائها لها وجدتها تنقسم على قسمين، ورأيت لزماً عليّ أن أشير إلى ذلك؛ لأن كثيراً من الناس يعدّون جميع تلك العلامات شؤماً، بل يذمونها، وإزالة الالتباس، أذكر القسمين: -

-الأول: علامات مذمومة وسيئة: وهي كثيرة جداً، كفش الزنا والتظاهر به، وشرب الخمر، وانتشار الظلم وكثرة القتل، فهذه أمور مذمومة؛ لأنها تدلّ على ضعف الدين، وهلاك الناس، وتخبّط الحياة.

-الثاني: علامات محمودة وحسنة: كظهور المهدي، وانتشار العمران، وفتح البلدان، لأنّ هذه الأمور تدلّ على التطور والتقدم، وانتشار العدل، وانتشار الاسلام في الأرض، وعلى الرغم من ذلك فإنها تدلّ على قرب الساعة، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى حين ذكر التطور العمراني وتقدم الحياة وأشار إلى أنّه يعقبه قيام الساعة، سواء كانت الساعة الكبرى «القيامة» أم قيام الساعة على تلك

(1) عبد الغني، تاريخ مكة: 119-120.

البلدة بالهلاك، لأنَّ هلاك بَلَدَةٍ ما يعني قيام الساعة على أهلها، فقال تعالى: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زُخْرَفَهَا وازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فْجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾، قال ابن القيم (ت: 751هـ): (شَبَّهَ سبحانه الحياةَ في أنَّها تتزيَّن في عين الناظر، فتروُّقُه بزِينتها وتُعجبه فيميل إليها ويهوَّاها اغتراراً منه بها، حتى ظنَّ أنَّه مالكٌ لها، قادرٌ عليها سلبها بغتَةً أخوَجَ ما كان إليها وحيل بينه وبينها)⁽²⁾.

ومن علامات الساعة المرتبطة بجبال مكة ما رواه يعلى بن عطاء عن أبيه قال: ﴿كُنْتُ آخِذًا بِلِجَامِ دَابَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَ مَكَّةَ قَدْ بُعِجَتْ كِظَائِمُهَا، وَرَأَيْتَ الْبِنَاءَ يعلو رؤوس الجبال فاعلم أنَّ الأَمْرَ قد أَظْلَكَ﴾⁽³⁾، وفي هذا الأثر علامتان:

الأولى: انتشار العمران، قال التوحيدي: (ت: 1413هـ): (وقد ظهر مصداق هذا الأثر في زماننا، فعمرت مكة، وبنيت واتسعت اتساعاً عظيماً وامتألت بالسُّكَّانِ، وَعَلَتْ بيوتُها على أخشبيها، وأُجريت مياه العيون في جميع نواحيها، فعلم من هذا أنَّ الأَمْرَ قَدْ أَزْفَ؛ أي: دَنَا قيام الساعة وقرب. وقوله بعجت كظائم؛ أي: حُفرت قنوات)⁽⁴⁾.

قلت: وأضيف إلى ذلك ما نراه اليوم، إذ إن طريقة البناء في مكة من خلال تعديل سفوح الجبال ثمَّ تبني عليها عمارة من عدة طوابق ترتفع على قمم الجبال.

الثانية: عملُ الأنفاق في جبال مكة؛ لأنَّ ابن منظور قال في معنى بعج: (بعج بطنه بالسكَّين يبعجه بَعْجاً، فهو مبعوج وبعيج، وَبَعْجُهُ: شَقُّهُ فزال ما فيه من موضعه، وَالبَعْجُ الشَّقُّ)⁽⁵⁾.

(1) سورة يونس، من الآية: 24.

(2) ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله، التفسير القيم، جمع: محمد أويس القرني، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار العلوم الحديثة، بيروت: ص 305.

(3) ابن أبي شيبه، المصنف: 461/7 رقم 37232.

(4) التوحيدي، حمود بن عبد الله (ت: 1413هـ)، إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ط3-دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، 1414هـ: ج2/ص172.

(5) ابن منظور، لسان العرب مادة (بعج): 214/2.

قلت: وقوله «مكة بُعجت» يوضح أنّ المراد جبالها؛ لأنّ الغالب على مكة كثرة الجبال، ولما كان البعج هو الشق، فإنّ المراد به شق الأنفاق، وهذا ما يدلّ عليه واقع الحال اليوم في مكة المكرمة، إذ حُفرت الأنفاق في كثيرٍ من جبالها.

والله أعلم

المطلب الثاني: وديان مكة المكرمة

تكثر الوديان غالباً في المناطق التي تضم سلاسل جبليّة وقد مرّ بنا أنّ مكة المكرمة محاطةٌ بالجبال.

والمسجد الحرام قلبُ مكة المكرمة النابض هو واد، وقد حكى لنا القرآن الكريم ذلك في دعاء سيدنا إبراهيم ► ► رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...⁽¹⁾، وقد أدّى ذلك قديماً إلى تجمع السيول في المسجد الحرام وامتلائه بالمياه لأكثر من مرة، حتى طاف بعضُ النَّاسِ سباحة، وقد اختفت تلك الحادثة من التكرار بفضل الجهود التي بذلتها الحكومة السعودية واشتهر بمكة أوديةٌ كثيرةٌ أهمّها:-

1- وادي منى:

وادي بين مكة والمزدلفة⁽²⁾، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إِنَّمَا سُمِّيَتْ مَنْى لِأَنَّ جَبْرِيْلَ ► حين أراد أن يفارق آدم ► قال له تَمَنَّ، قال: أَتَمَنَّى الجنة، فسميت منى لأمنية آدم ►، وقيل: إِنَّمَا سُمِّيَتْ مَنْى لما يَمْنَى فيها من الدماء⁽³⁾؛ أي: يُرَاق، ويقع على بُعد 7 كم شمال شرق المسجد الحرام، وعن طريق النفق 4 كم، وهو المكان الذي ينزل فيه الحجاج في اليوم الثامن من ذي الحجة وصباح اليوم التاسع إلى أن تُشرق الشمس، ثمّ يذهبون إلى عرفة، وهو أيضاً: المكان الذي يعودون إليه بعد الوقوف بعرفة، يقضون فيه يوم النحر، وأيام التشريق ولياليها، حتى ينتهوا من رمي

(1) سورة إبراهيم، من الآية: 37.

(2) ينظر: الحموي، معجم البلدان: 5/198.

(3) الأزرق، أخبار مكة: 2/180.

الجمار⁽¹⁾، وقد ورد في ذلك قوله تعالى ▶ واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى...⁽²⁾، وهو مشعرٌ داخل حدود الحرم، وبه رمى إبراهيم ▶ الجمار، وذبح كبشاً بدل إسماعيل ▶، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: إِذَا كُنْتَ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ مِنْ مَنَى - وَنَفَحَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ - فَإِنَّ هُنَاكَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ: وَادِي الشَّرْرِ، بِهِ سَرْحَةٌ سُرٌّ تَحْتَهَا سَبْعُونَ نَبِيًّا ﷺ⁽³⁾، فَأَخْشَبَا مِنْى: الْجَبَلَانِ اللَّذَانِ هُمَا بَيْنَهُمَا وَهُمَا: ثَبِيرُ الَّذِي عَلَى يَسَارِ الذَّاهِبِ إِلَى عَرْفَةِ وَمَا يَلِيهَا وَالصَّفَائِحُ وَهُوَ الَّذِي بِلَحْفَةِ مَسْجِدِ الْخَيْفِ، وَالسَّرْرُ مَا تَقْطَعُهُ الْقَابِلَةُ مِنَ الْمَوْلُودِ، وَالْبَاقِي مَعَ الْقَطْعِ يُقَالُ لَهُ السَّرَّةُ وَالْمَقْطُوعُ: السَّرْرُ وَالسَّرَرُ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ وُلِدُوا تَحْتَ تِلْكَ السَّرْحَةِ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي هِيَ فِيهِ يُسَمَّى وَادِي الشَّرْرِ، بَضْمَ السِّنِّ، وَقِيلَ: بَفَتْحِهَا، وَقِيلَ: بِكَسْرِهَا، وَالرَّاءُ مَفْتُوحَةٌ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ⁽⁴⁾.

وتوجد بمنى الجمار الثلاث، ومسجد الخيف⁽⁵⁾، ومسجد البيعة حيث تمت بيعة الأنصار للنبي ﷺ، وبمنى وفي أول أيام النحر ذبح النبي ﷺ هذْيَه فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَالَ ﷺ: مَنِ كُلَّهَا مَنْحَرٌ ﷻ⁽⁶⁾.

آيات منى

ذكر العلماء أنّ في منى خمس آيات⁽⁷⁾:

- الأولى: رَفْعُ مَا يُقْبَلُ مِنْ حَصَى الْجَمَارِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَسَدَّ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَقَدْ سُئِلَ سَيِّدُنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ تِلْكَ الْجَمَارِ كَيْفَ لَا تَكُونُ هَضَابًا؟ فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِهَا مَلَكًا فَمَا يُقْبَلُ مِنْهَا رُفْعَ، وَمَا لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُ تَرْكُ)⁽⁸⁾.

(1) المالكي، محمد: في رحاب البيت الحرام: 295.

(2) سورة البقرة، من الآية: 203.

(3) ابن حبان، الصحيح: 137/14 رقم 6244.

(4) الفاسي، شفاء الغرام: 322/1 مع بعض التقديم والتأخير.

(5) الإمام مالك، الموطأ: 423/1 رقم 949، والإمام أحمد، المسند: 138/2 رقم 6233، والنسائي، المجتبى: 248/5 رقم 2995، وابن

حبان، المصدر السابق: 137/14 رقم 6224، والبيهقي، السنن الكبرى: 139/5 رقم 9392.

(6) مسلم، الصحيح: 893/2 رقم 1218.

(7) الفاسي، المصدر السابق: 322/1-323.

(8) الأزرق، أخبار مكة: 177/2.

- الثانية: اتساعها للحُجَّاج في أيام الحج مع ضيقها في الأعين عن ذلك، عن أبي الطُّفَيْل قال: سمعتُ ابنَ عباس رضي الله عنهما يُسأل عن منى ويُقالُ له عجباً لضيقه في غير الحج، فقال ابن عباس: (إنَّ منى تَتَّسع بأهلها كما يَتَّسع الرحم للوَلَد) (1).

- الثالثة: إنَّ الحِدَاةَ* لا تخطف اللحم بمنى أيام التشريق، مع تولعها بخطف اللحم حيث رأتها، حتى لو رأت خرقة حمراء انقضت عليها حتى تخطفها.

- الرابعة: إنَّ الذباب لا يقع في الطعام وإن كان لا ينفك عنه في الغالب كالغسل وشبهه.

- الخامسة: قلَّة البعوض بها أيام الحج مع كثرتة في باقي الأيام.

وتبذل الحكومة السعودية مشكورةً جهوداً جبارة لراحة الحجاج في منى من خلال توفير الخدمات كافة بما فيها اللوحات الإرشادية ونصب الخيام على مَدِّ البصر وكل ذلك من أجل التيسير على الحجاج وخدمتهم، وقد أدليتُ بدلائي باتجاه خدمة الحجاج، وتقليل التكاليف على المملكة العربية السعودية، من خلال مشروع متكامل يهدف إلى تيسير الرمي من جانب، وتقليل العبء على المملكة من جانب آخر، وقد عَرَضْتُهُ بالتفصيل في الفصل الأول. والله من وراء القصد.

2- وادي مُحَسِّر:

هو اسم الفاعل من الحَسَر: وهو كَشَطُك الشيء وكَشْفُكَ إِيَّاه، يُقال: حَسَر عن ذراعيه، وحَسَر البيضة عن رأسه، ويجوز أن يكون الحَسَرُ بمعنى الإعياء، فنقول: حَسَرَت الدابة إذا أُعْيِت، ويجوز أن يكون من: حَسَرَ فلانٌ حَسْراً وحَسَرَةً، إذا اشتدَّت ندامته (2).

(1) المصدر نفسه: 179/2.
* الحِدَاة: بكسر الحاء، أخسُّ الطير، وهي لا تصيد وإنما تخطف، وقد أمر النبي ﷺ بقتلها في الحل والحرم. الديميري، كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى (ت: 807 هـ)، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج، ط1- دار الكتب العلمية، بيروت، 1415 هـ- 1994 م: ج1/ص 327-328.
(2) الحموي، معجم البلدان: 62/5.

وسُمِّي ذلك الوادي مُحَسِّرًا؛ لأنَّ فيلَ إبرهة الذي جاء لهذَم الكعبة حُسِرَ فيه؛ أي: أعيا وانقطع عن الذهاب⁽¹⁾.

وهو طريقٌ ضيقٌ بين سِلْسِلَتَيْن من الجبال طوله نصف كيلومتر بين مُزْدَلْفة ومنى⁽²⁾، وقد أُشير إلى حدوده بين منى والمزدلفة باللوحات الإرشادية المكتوب عليها «وادي مُحَسِّر»، وهو من الحرم وليس بمشعر⁽³⁾.

ويُسَنُّ للحاج الإسراع في أثناء عودته من مُزْدَلْفة إلى منى لما ثبت أنَّ النبي ﷺ إذا أتى بطن مُحَسِّر حَرَكَ قليلاً⁽⁴⁾؛ لأنَّه المكان الذي أهلك الله فيه جيش أبرهة، ومن ناحية أخرى؛ لأنَّ العرب في الجاهلية كانوا يقفون فيه ويذكرون مفاخر آبائهم فاستحب الشارع مخالفتهم أيضاً⁽⁵⁾.

وقد بيّن النبي ﷺ الحكمة من الإسراع عند المرور على أرض المغضوب عليهم، أي: التي أنزل الله فيها العذاب عليهم، وذلك لما مرَّ بجيشه بالحجر وهي منازل ثمود، فقال ﷺ لأصحابه: لا تَدْخُلُوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثُمَّ قَنَعَ رأسه، وأسرع السير حتى اجتاز الوادي ﷺ⁽⁶⁾، ولعلَّ سائلاً يسأل ما معنى: يصيبكم ما أصابهم لاسيما وإنَّ كثيراً من المُتَقَبِّين والمؤرخين والسيّاح يمرّون على مثل تلك الأماكن، ولا يصيبهم شيء؟ وما فائدة البكاء؟

قلت: يمكننا أن نفهم من الحديث معنيين مُتلازمين، لا ينفي وقوع أحدهما حصول الآخر، وهما:

(1) حامد، ذكرى من مكة المكرمة: 75.
(2) المالكي، في رحاب البيت الحرام: 280.
(3) عبد الغني، تاريخ مكة: 112.
(4) مسلم، الصحيح: 2/891 رقم 1217، وتتنظر التفاصيل: الشيباني، محمد بن الحسن بن فرقد (ت: 189 هـ)، المبسوط، تحقيق: أبو الوفا الأفعفاني، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي: ج2/ص422، وابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت: 456 هـ)، المحلى، تحقيق: لجنة أدباء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت: ج7/ص121، وابن حزم الأندلسي، حجة الوداع، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، ط1، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، 1998م، والقرطبي، محمد بن أحمد (ت: 595 هـ)، بداية المجتهد، دار الفكر، بيروت: ص255.
(5) المالكي، المرجع السابق: 280.
(6) البخاري، الصحيح: 4/1609 رقم 4157، ومسلم، المصدر السابق: 4/2285 رقم 2980.

-معنى ظاهر: أي يجب الإسراع على مَنْ مَرَّ بتلك الأماكن، وأن لا يُقيمَ بها لئلا يُصيبه العذاب نفسه الذي أصاب القوم المغضوب عليهم في تلك البقاع ولا يُعجزُ الله شيءٌ لاسيما وأننا نسمع بين الحين والآخر عن الكوارث المدمرة في أماكن آمنة، من العالم، فالواجب علينا أن نؤمن بمثل هذه الأشياء الغيبية إيماناً مُطلقاً.

-معنى خفي: وهو إن آثار السَّخَط الإلهي تبقى في الأماكن الذي ينزل فيها العذاب، وتلك الآثار تبقى بصورة ظُلْمة إلى يوم القيامة، وقد نهى النبي ﷺ أمته عن الإقامة بتلك الأماكن لئلا تُصيبهم ظُلْمة المكان، فَتُعَكِّرَ أرواحهم، فتنقل لهم بعض الصفات الخُلُقِيَّة لهؤلاء القوم المغضوب عليهم، فيكونون محلاً للعقاب والغضب؛ ويقرب من هذا المعنى قول مجاهد في قوله تعالى: ﴿فقلنا لهم كونوا قردة﴾⁽¹⁾، أنه إنما مُسخت قلوبهم فقط، ورُدَّت أفهامهم كأفهام القردة⁽²⁾.

وأما حكمة البكاء، فإنَّ البكاء رَحمة، واستجلابه استجلاب للرحمة الإلهية، فَلِكِنِّي يمرّ الإنسان دون أن تصيبه الظُّلْمة يَمُرُّ باكياً، والقلبُ محلٌّ لأحد أمرين: إما نورٌ ورحمة، أو ظُلْمةٌ وغضب، فينبغي على المؤمن أن يستعجل الرحمة قبل أن تصيبه الظُّلْمة، أو ليُخْرِجَ على الأقلَّ كفافاً، لا له ولا عليه.

والله أعلم.

ويترتب على ذلك أنَّ آثار الرحمة الإلهية تبقى أيضاً إلى يوم القيامة وسنأتي إن شاء الله على هذا الموضوع بشيءٍ من التفصيل قريباً.

3- وادي سَرْف:

وهو وادٍ يقع شرقي مكة على بعد 16 كم، وفيه قبر أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وهو على يسار الذهاب إلى المدينة المنورة أمام محطة بنزين وادي سَرْف ويُعرفُ الآن بحَيِّ النَوَّارِيَّة⁽³⁾.

(1) سورة البقرة، من الآية: 65.

(2) القرطبي، تفسير: 300/1.

(3) حامد، ذكرى من مكة المكرمة: 121.

وقد روي: **﴿إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تزوج ميمونة بسرف، وبنى بها بسرف، وماتت بسرف﴾**⁽¹⁾، ولما انتهت خطبة رسول الله ﷺ إلى ميمونة وهي على بعير ترامت على الأرض فرحاً برسول الله ﷺ وقالت: (البعير وما عليه لله ورسوله)⁽²⁾، فتزوجها النبي ﷺ سنة 7هـ⁽³⁾.

وعن يزيد بن الأصم قال: ثقلت ميمونة بمكة، وليس عندها من بني أخيها أحد، فقالت: أخرجوني من مكة، فإنّي لا أموتُ بها، إنّ رسول الله ﷺ أخبرني أنّي لا أموتُ بمكة، فحملوها حتى أتوا بها إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القُبّة فماتت⁽⁴⁾.

وكان موتها سنة إحدى وخمسين على الصحيح⁽⁵⁾، وقد قالت عنها السيدة عائشة رضي الله عنها: (أما إنّها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرّحم)⁽⁶⁾.

4- وادي ذي طوى:

هو وادٍ من أودية مكة وكُلّه اليوم معمور بأحياء سكنية، وانحصر الآن في بئر بجَرْوَل تُسمّى بئر طوى⁽⁷⁾ مقابل مستشفى الولادة خَلْفَ عمارة الجفري في منطقة آبار الزاهر⁽⁸⁾.

وذو طوى هو بطن مكة الذي ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون

(1) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت: 203 هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط2- الكاملة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ- 1997 م: ج8/ص133، والامام أحمد، المسند: 359/1، والطبراني، المعجم الأوسط: 289/4 رقم 4225.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية: 61/6، والزبير بن بكار، المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ، تحقيق: سكيئة الشهابي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403 هـ: ص54.

(3) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت: 748 هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط9- مؤسسة الرسالة، بيروت: ج2/ص239.

(4) أبو يعلى، المسند: 27/13 رقم 7110، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: 249/9، وعدت تلك الحادثة من معجزات النبي ﷺ. ينظر: د. مصطفى مراد، معجزات الرسول ﷺ (ألف معجزة من معجزات الرسول)، ط1، دار الفجر للنشر، القاهرة، 1423 هـ- 2002 م: ص244، والندوي، محمد وليّ الله، نبوءات الرسول ما تحقق منها وما يتحقق، ط7، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة القاهرة، 1425 هـ- 2044 م: ص121.

(5) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت: 852 هـ)، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، ط1، دار الرشيد، سوريا، 1406 هـ- 1986 م: ص723.

(6) الهيثمي، نور الدين، مسند الحارث يزوائد الهيثمي، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، ط1، مركز خدمة السيرة والسنة النبوية، المدينة المنورة، 1413 هـ- 1992 م: ج1/ص135.

(7) حامد، ذكرى من مكة المكرمة: 119.

(8) عبد الغني، تاريخ مكة: 139.

بصيراً⁽¹⁾، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ⇨ أَنَّ النَّبِيَّ ⇨ كَانَ يَنْزِلُ بِذِي طَوًى، وَيَبِيتُ حَتَّى يُصْبِحَ - يُصَلِّي الصُّبْحَ - حِينَ يَقْدُمُ مَكَّةَ ⇨⁽²⁾.

وكان النبي ⇨ يَغْتَسِلُ مِنْ بئرِ ذِي طَوًى، عَنْ عُرْوَةَ: ⇨ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ⇨ بَاتَ بِذِي طَوًى حَتَّى صَلَّى الصُّبْحَ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ مَكَّةَ ⇨⁽³⁾.

وقد بني بذِي طَوًى مسجدٌ قَرِيبٌ مِنْ مُصَلَّى رَسُولِ اللَّهِ ⇨ وكان قَرِيباً مِنْ البئرِ عَلَى يَمِينِ الْمَتْجِهَةِ إِلَيْهَا وَبَقِيَ الْمَسْجِدُ مَعْرُوفاً إِلَى أَنْ أُزِيلَ لِتَوْسِيعَةِ الشَّارِعِ، وَأَمَّا الْبئرُ فَمَا زَالَتْ مَوْجُودَةً⁽⁴⁾.

وبذلك يكون هذا الوادي قد حوى البركة من جانبيين:

-الأول: إِنَّ النَّبِيَّ ⇨ قد بات فيه.

-الثاني: إِنَّهُ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُرْتَبِطاً بِظَفَرِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدُ وَهُمْ.

5- وادي عُرْنَه

بضم العين: الموضع الذي يجتنب الحاج الوقوف فيه وهو من العلمين الذين هما حَدَّ عُرْفَةٍ، والعلمين الذين هما حَدَّ الْحَرَمِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ⁽⁵⁾.

والجزءُ الْمُقَدَّمُ مِنْ مَسْجِدِ نَمْرَةٍ يَقَعُ فِي هَذَا الْوَادِي، وَهُوَ خَارِجُ عُرْفَاتٍ، وَدَاخِلٌ فِي الْحِلِّ وَلَيْسَ بِمَشْعَرٍ، وَهُوَ حَدُّ فَاصِلٍ بَيْنَ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ⁽⁶⁾.

وفي بطن هذا الوادي خطب النبي ⇨ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ، فِي رِوَايَةِ جَابِرٍ ◀: فَأَتَى النَّبِيُّ ⇨ بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ: إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دِمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدٍ، فَفَقَتَلْتَهُ هَذَا، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ رَبَا

(1) سورة الفتح، آية: 24.

(2) البخاري، الصحيح: 185/1، ومسلم، الصحيح: 911/2، رقم: 1240.

(3) البخاري، المصدر نفسه: 570/2، رقم: 1498، ومسلم، المصدر نفسه: 919/2، رقم: 1259.

(4) عبد الغني، تاريخ مكة: 140.

(5) الفاسي، شفاء الغرام: 306/1.

(6) عبد الغني، المرجع السابق: 120.

أضْعُهُ ربا العباس بن عبد المطلب فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكَسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصِمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِاصْبِرْهُ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكِتُهَا إِلَى النَّاسِ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (1).

قلت: وتبرز لنا الحكمة النبوية العظيمة من اختيار ذلك الموقع وهو وادٍ، لتنبيه المسلمين على أمورٍ عظيمة، فالوادي يَسْعُ أكبر عددٍ من الناس، ويمكن إيصال الصوت فيه بسهولة لجميع الحاضرين مما يُسهِّل الوصول إلى الغاية، ولو تأملنا موضوعات تلك الخطبة لبرزت لنا أهميتها للمسلمين خصوصاً وللناس عموماً، فقد تركزت في أربعة محاور رئيسية:-

1- التحذير من التهاون في الدماء لأنه سبب لتعطُّل الحياة، وانتشار الدمار.

2- نبذ عادات الجاهلية كالتعاملات الاقتصادية الباطلة.

3- تنظيم العلاقة الاجتماعية المبنية على تبادل الاحترام بين الرجل والمرأة.

4- إنَّ الحِلَّ لجميع الاختلافات هو كتاب الله وسنة رسوله (2).

وقد ظهرت تلك الأمور في حياة المسلمين فيما بعد، إذ لم تُصَبِّهم الكوارث إلا بعد التهاون بالدماء، وتعاملهم بالتجارة غير الشرعية وتخليهم عن كتاب الله وسنة رسوله (3).

وللأهمية القصوى لتلك الموضوعات اختار النبي (4) ذلك الموضع وهو الوادي، كي تبلغ دعوته الناس جميعاً، فيلقي الحُجَّةَ عليهم ويبيِّن لهم سبيل الخلاص.

المطلب الثالث: مَنَاحُ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ

(1) مسلم، الصحيح: 890/2 رقم 1217.

تحيط مكة المكرمة الجبال، فإذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوامات، وتعذر تعيين مُلتقى الرياح إلا في بعض الحالات، ومناخ مكة على العموم حارٌّ جاف تختلف حرارته بين 18 درجة في شهور الشتاء و 30 درجة في شهور الصيف، وقد ترتفع الحرارة في بعض السنوات إلى ما يزيد على 40 درجة⁽¹⁾.

قلت: ومن تأمل ذلك المناخ مُقارنة بدرجات الحرارة في دول العالم عموماً، وجدَ مناخ مكة مُعتدلاً طيلة أيام السنة مقارنة بتلك الدول، وذلك يهيئ جواً مناسباً لأداء فريضة الحج، فالحاجّ كم هو معلوم لا يلبس إلا إزاراً ورداءً، ثم إن هؤلاء الحجيج يأتون من مشارق الأرض ومغاربها، فمنها المناطق المتجمدة، ومنها المناطق الاستوائية الملتهبة، ومنها ما تتوسط بين هذه وتلك، فلو كان الجو حاراً لم يستطع أهل المناطق الباردة أداء فريضتهم بسهولة، ولو كان بارداً جداً لم يستطع عموم المسلمين أداء فريضتهم، ولا ننس أن مواقيت الحج الزمنية تنتقل عبر الفصول الأربعة.

(1) السباعي، تاريخ مكة: 21/1.